# في وداعِ جـوزف سماحــة:
# مـا أقسـى هذا الرحيـل(*)

**عبد الإله بلقزيز(**)**

**أستاذ الفلسفة، جامعة الحسن الثاني ـ المغرب.**

## ـ ١ ـ

ما أحْزَنَ هذا اليومَ الخامسَ والعشرين من شهر شباط/ فبراير من العام ٢٠٠٧. ما أَقْتَمَ طَلْعَتَهُ على النفس والقلب. لستُ أعرفُ ما كَانَهُ هذا اليومُ في يوميات التاريخ السياسية والثقافية والإنسانية لغيري من البشرِ في هذه الأرض: ربَّما خَلَّدَ ذكرى تاريخية لشعْبٍ أو جماعةٍ؛ وربَّما ذَكَّرَ بَشَراً بمأساةٍ وطنيةٍ أو فردية؛ ربَّما كان ذكرى حُبٍّ وُلِدَ بين أنقاضِ يأسٍ ورجاء، وربَّما رَمَزَ لذكرى نهايةِ نشوةِ عاشِقِيْن، وربّما كان غيرَ ذلك. قد يكون هذا اليوم أيَّ عنوانٍ لأيِّ حدثٍ جَرَتْ وقائِعُهُ في الكون مثل نجاحِ ثورةٍ أو إخفاقِ طُوبَى أو ميلادِ أغنيةٍ أوقصيدةٍ أو صدورِ كتاب أو زفافِ كَهْلٍ أو رحيلِ شهيد، أو زلزلة أرضٍ ضاعتْ فيها ملامحُ الأرض...؛ لستُ أعرفُ ما كَانَهُ هذا اليوم في يوميات التاريخ وفي الوجدان العام للبشر، لستُ حريصاً على تقليب صفحات التاريخ في مدوَّناتِهِ والموسوعات لكي أعرف ما الذي يعنيه هذا اليومُ «بعيداً» عنّي، أو ما الذي يَرْمُزُ إليه إذْ يُذْكَرُ تاريخاً في مَعْرِضِ كلامٍ عابر. لكنني أعرف شيئاً واحداً وحيداً أحَداً: أن جوزف سماحة رَحَلَ عنَّا هذا اليوم.

رَحَل جوزف من دون استئذان. أَلْقى نهايتَه بعيداً وصعد إلى حتفه. لم يوفِّر لنا ـ ونحن الأصدقاء والأهل ـ فرصة الوداع الأخيرِ، وداعِ مَنْ لا يليق الوداعُ إلا بمثله. «اختار» أن يُشَيِّعَنَا بعيداً عنّا: هناك في لندن، في بيت صديقٍ له أحَبَّهُ منذ الصِّبَا (= حازم صاغية) وظل

(*) في ذكرى مرور سنة على وفاته.

(**) من مؤلفاته: **في الديمقراطية والمجتمع المدني: مراثي الواقع، مدائح الأسطورة** (٢٠٠١)؛ **الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر** (٢٠٠٢)؛ **تكوين المجال السياسي الإسلامي: النبوّة والسياسة** (٢٠٠٥)؛ **حزب الله: من التحرير إلى الردع (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٦)** (٢٠٠٦)؛ **العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين** (٢٠٠٧)، و**في الإصلاح السياسي والديمقراطية** (٢٠٠٧).

لصداقتِه وفيّاً على تباعُدٍ بينهما في المواقف والخيارات؛ كان ذلك دأبه دائماً مع الأصدقاء: مع الذين قاسَمُوهُ الضَّرَاء ومحنَةَ التجذيف الصَّعب ضدّ التيار الجارف بغير قليلٍ من روح البطولة «المستحيلة» التي قد لا تَطْلُبُ من بطولتها غير تحرير الذات من الشعور القاتل بالتخلي عن واجب الطهارة والنقاوة، ومع الذين أعياهُم التجذيف في منتصف الطريق، فآثروا أن يُدَثِّرُوا قِصَر النَّفَس ورخاوةَ الممانعة بإكسسوارات ايديولوجية من إنتاج «شَرِكَة» «الواقعية السياسية» التي كان يَمجُّها جوزف مجّاً ويدعو في مقالاته إلى مقاطعةِ بضائعها.

رَحَلَ جوزف ولم يكن قد قال كلَّ شيء في مسائِلَ عديدة يوحي ما كَتَبَهُ عنها بأنه قال فيها «كلّ شيء». كان في جعبته الكثير ممّا يقولُه في أحوال زماننا وممَّا ليس يَقْوى غيرُهُ على قوله بمعايير الكفاءة والاقتدار وبمعايير الشجاعةِ التي لا تَعْدلها في قول الحق شجاعةُ قَلَم في هذه الديار. رَحَلَ تاركاً أزمةَ لبنان على استفحالٍ ومحْنَةَ فلسطينَ على مليون احتمال. رَحَلَ تاركاً بين أيدينا ألف سؤالٍ تُلْقِيهِ علينا المرحلةُ من دون أن نُعِدَّ عليها جواباً يُشْفِي غليلاً أو يقترب قليلاً ممَّا آنَسَتْهُ مفرداتُه ومعادلاتُه التي تَزُفُّ الغامضَ إلى الواضح والمُسْتَعْصِي إلى المُمْتَكِن. رَحَلَ جوزف الذي كان يَقْتَدِرُ على استلالِ الموقف الصحيح من براثن اللحظة الفاجعة وعلى إقْدَار قارِئه على تنظيم علاقةِ الالتباس بين مشهدٍ عَبَثِيّ أو سوريالي بلا شخوص وبين كلامٍ واقعيٍّ يبحث في مسرح السياسة عمَّن ينطق به على خشبة الأحداث.

رَحَلَ جوزف في لحظةٍ ادلهمَّت واستغلقت قسماتُها الرمادية على التبيُّن. هي لحظةُ الإعجاز: إعجازِ اللغة عن العبارة عمَّا وراء الملتبِس والغامض بمفردات تَسْتَكْنِهُ وتُبدِّد، إعجازِ الفكر عن التصدي والصمود أمام تدفّق جحافل الأسئلة عليه. هي لحظة جوزف بامتياز. وحْدَهُ لا يُعْجِزُهُ الالتباسُ واشتباكُ الظواهر إعجازاً ولا يَهِنُ قَلَمُهُ أمامهما، بل يندفع مِقْدَاماً لِيُفَكِّك المُرَكَّبَ ويفتح أمام الوعي أفقاً لاستيعاء المجاهل. وحده؟ قُلتُ وحدهُ ومازلَّ القَلَمُ أو شَطَحَ الوعيُ أو تزيَّدَتِ العبارةُ، لأنه ـ حقّاً ـ وحدَهُ كان في مُكْنِهِ أن يبدّد الأسئلة القلقة عن اللحظات الأكثر قلقاً. دُلُّوني على نَصٍّ لجوزف ارتجفَ يوماً أمام الغموض أو ترهَّلت مفرداتُه أو سَكَنَتْهَا سِنَةٌ من تَلَعْثُم أعتذر لكم عن «شَططِي» في الحكم إنْ أَفْلَحْتُم... ولن تُفْلِحوا.

رَحَلَ الذي كان يزوّجُ الممارسةَ للنظرية ويُحْكِمُ الوشيجَةَ بين اليوميِّ العاديِّ وبين الاستراتيجيِّ بعيدِ المدى. شرَّفَ السياسة والصحافة التي أتى إليهما من الفلسفة وضَخَّ في شرايينهما دماء التحليل والتركيب والاستنباط والتجريد ليرتفع بالمقالة السياسية إلى نصاب النصّ الفكريّ الثريّ، وشرَّف الفلسفة بأن حوَّلها إلى معرفةٍ في خدمةِ المجتمع والإنسان وقضاياهما، وكعينٍ يقِظة لحراسةِ الحقيقة من لَسْعَةِ الزّيف.

كان جوزف مثالاً نادراً لليقظة الفكرية أمام الغُثَاء السياسيّ وزَبَدِ الكلام الذاهب إلى اختطاف النَّبَاهة أو التحايُل على المعنى العميق للأشياء. كلَّفُه الحفاظُ على لياقته الذهنية رياضةَ العقلِ على نصوصٍ من الفكر لم يقطع صلةً بها في عزِّ انغماسه في مقاربةِ اليوميِّ المتغيّر، لأنها طريقتُهُ الوحيدةُ للتمرين على جَبْه أحابيل الخطاب والفِخَاخ المنصوبة للوعي في تضاعيفِ مفرداته وأزعوماتِه الضِّمْنيَّة أو المؤسِّسَة. وكان مثالاً نادراً لممارسة فعل

السّدَانَةِ المبدئي لمنظومة الثوابت والمبادئ الوطنية والقومية والديمقراطية والإنسانية وحفظها من التَّلف أو التلويث. ظل موضوعيّاً في التحليل وصاحبَ موقفٍ في الآنِ نفسِه. لم يَهْبِط يوماً إلى لغة الايديولوجيا والتبرير، لكنه ما سَاوَمَ أبداً على ما حَسِبَهُ في جملة المبادئ. حين تشتد حلكةُ المرحلة ويزحف يأسٌ في النفوذ، يقود قتالَهُ التراجعي نحو خطوط الدفاع الأخيرة: الثوابت، فيستميت مدافعاً. وكم وَجَدَ نَفْسَه، أحياناً، يقاتل وحده دفاعاً عن حومةِ المبدأ حِينَ غيرُهُ يلوذُ بالصمتِ أو الفرار، أو حين يمارس حقّ اللجوء إلى الأدب بعد أن أقفرتْ ساحُ السياسة، أو سَرَتْ في أدغالها الضَّوَاري.

لم يَخْلد جوزف للصمت في مواجهة النوائب والمُلِمَّات، ولم يَفِرَّ من معركةٍ طلباً للسلامة الشخصية، ولا لَجَأَ إلى الأدب تعويضاً، وإنما أتى بالأدب إلى السياسةِ والصحافةِ واستضافَه في نصوصه كأرقى ما تكونُ الاستضافة وألَذّ. أما الذين صمتوا أو فرُّوا، فكان في قلبه متَّسَعٌ للمغفرة لهم، خاصة حينما يُمْسكون اللسان عن النَّيل من ماضيهم. أما الذين قدَّموا تَوْبتَهم وتدافعوا بالمناكب لتلاوةِ فعل الاعتذار عن ماضيهم(الثوري، القومي، الوطني) أو لتأجير ألسنتهم لمَنْ يشتري اعترافاتهم عن أنفسهم حجةً عليهم وعلى سُلالتهم، فأولئك عند جوزف هم «الكافرون» ويجوز عنده ـ تطبيق «حدّ الردَّة» فيهم الذي هو ليس أكثر من تسفيه آرائهم لدى الجمهور والتشنيع على تراجعهم وجعلهم يدفعون ـ نفسيّاً ـ ثمن الانقلاب على أنفسهم شعوراً بالعزلة وزرايَةً بالنفس. ولقد كتب جوزف أجمل الصفحات وألذّ عن مثقفي التوبة والاعتذار في كتابه الرائع: **سلامٌ عابر**. وليس يخامرني شك في أن أيّاً من أولئك التائبين ممَّن قرأ ما كتبه جوزف عن توبتهم قَرَأَ الذي قرأ وهو ناقمٌ على نفسه محتقِرٌ إيّاها إن كان قد بقيَ في نفسه نزر يسير من الكرامة وعزّة النفس.

**رحل الذي كان يرتفع بالمقالة السياسية إلى نصاب النص الفكري الثري، وشرّف الفلسفة بأن حوّلها إلى معرفة في خدمة المجتمع والإنسان.**

لجوزف أكثر من سلطة في أوساط من عرفوه مباشرة، أو من عرفوه قراءةً: سلطة معرفية يعترف له بها الخصوم قبل الأصدقاء، وجاذبية ساحرة في شخصه يَسَّاقَطُ تحت إغرائها الرجالُ والنساء، وسلطة أخلاقية حوَّلتْه بامتياز إلى ضميرِ جِيلٍ ومرحلة. سريعاً تحوَّل جوزف إلى ترمومتر نَقِيسُ به درجة حرارة الأشياء والمواقف صحةً أو اعتلالاً، وتحوَّلتْ نصوصُه إلى ما يُشبه «التعاليم السياسية» التي على المرء مِنّا أن يحفظها قبل أن يجذّف في بحر المواقف والأحداث. وحين يتردَّد في نفس الواحدِ منّا صوتان ويأخذه التلبدُّ في المشهد إلى حافة الحسم بين رأيَيْن فيه يتجاذبان، يجد نفسَه منقاداً تلقائياً إلى معرفة الموقع الذي يقف فيه جوزف. فهناك فقط، هناك يطمئن إلى موطئ قَدَمِه.

جوزف، أيها الذي غادرنا وألْقَى بنا في اليُتْم المعرفي، مَنْ بَعْدَك يَفُكُّ لُغزاً ويُفَكِّكُ أسئلة؟ إن التفكير الاستراتيجيَّ بعدَك «مغامرةٌ غيرُ محسوبة».

## ـ ٢ ـ

قدَّم جوزف سماحة مثالاً استثنائيّاً لمعنى المثقف الملتزم بقضايا المجتمع والأمة والإنسان. دَفَّعَهُ التزامُه أحياناً حرماناً وتشريداً ووضَعَ مصيرَهُ الإنسانيّ الشخصيّ أمام المجهول. ولقد كان هناك من ينتظر ضائقتَهُ حتى يجرّب أن يستثمر فيها عَسَاهُ يستدرج جوزف إلى قول ما لا يريد ـ وما لم يُرِدْ قولَه ـ مرةً في حياته. كان الإغراءُ الماديُّ كبيراً، وكان جوزف كعادته أكبرَ من أيّ إغراء (ما خَلَا إغراء الجمال). كان زاهداً، وكان يكفيه ثراؤُهُ الفكريُّ والإنسانيُّ والأخلاقيّ ليعوِّضه عن ثراءٍ مادي لم يَسْعَ إليه يوماً وهو الذي كان يمكنه ـ بقلمه وقامته وسمعته ـ أن يكون من أكثر أثرياء الكُتّاب في البلاد العربية والعالم. نَقَاوَتُهُ رصيدُه، وهو الرصيدُ الأضخم الذي رفَضَ أن يَسْحَب منه يوماً في أحلك لحظات الفاقة والعوز، بل سعى في تعظيمه بدأبٍ ومثابرة كبيريْن.

تغيَّر أكثرُ رفاقه وأصدقائه من أبناء جيله والمدرسة الفكرية التي انتمى إليها، وخاصة بعد نكبة المشروع القومي والاشتراكي والثورة الفلسطينية، وبدَّلوا تبديلاً، لكن جوزف ما بدَّل أو تراجَعَ عن خطٍّ أحمر رَسَمَهُ لنفسه مُذْ بَدَأ مناضلاً في «منظمة العمل الشيوعي» (١٩٧٢) إلى آخر سطرٍ سطَّرهُ في زاويته («خط أحمر») في جريدة «الأخبار» قبل أيام معدودات من رحيلهِ المفاجئ. داهَمَتْه وجيلَهُ واللبنانيين جميعاً حربٌ أهليةٌ ملعونة أطلقت عفريت الطائفية في النصوص والنفوس (١٩٧٥ ـ ١٩٨٩)، فلم تحرِّك فيه غريزةً طائفية بل رفعتْ في عقله ووجدانه منسوبَ العداء للطائفية. وهو في جملة قلّةٍ قليلة من اللبنانيين لا تكاد تتذكر (أنتَ) أنه ينتمي إلى طائفة. الشيعيّ يَحْسَبُه شيعيّاً من فرط دفاعه عن المقاومة و«حزب الله». والسنيّ يحسبُه سنّياً من فرط دفاعه عن التراث السياسي الناصري في أوساط سنَّة لبنان وولائهم التقليدي للعروبة. والدُّرزي يحسبُه درزيّاً لتمسُّكه بتراث الزعيم الشهيد كمال جنبلاط. والماروني يحسبُه مارونيّاً لِحِرْصِه على التذكير بتراث الموارنة الثقافي في خدمة الفكرة العربية منذ العهدين العثماني والفرنسي أو لدفاعه عن مواقف الزعيم الماروني ميشيل عون. والأورثوذوكسي يحسبُه أورثوذوكسيا من فرط تشديده على تمسّك أبناء هذه الطائفة بشرقيتهم وعروبتهم. أما أبناء طائفة الروم الكاثوليك ـ التي أنجبت مثقفين ورجالَ دين كباراً مثل غسان سلامة أو مطران «لاهوت التحرير» غريغوار حدّاد ـ فيفاخرون بأن جوزف سماحة ابنُ طائفتهم. كان مع أبناء هذه الطوائف حين يلتزمون الموقعين الوطني والقومي، وكان شديد النقد لزعمائها حين ينكفئون من هذين الموقعيْن إلى أقفاصهم الطائفية يُحْكِمُون الإغلاق على أنفسهم وجمهورهم فيها. وداهمتْه وجيلَهُ نكبةُ احتلال لبنان في العاميْن ١٩٧٨ و١٩٨٢، فما أصابَهُ يأس مادامت في البلد إرادة المقاومة. وحين أُجْبِرتِ المقاومةُ الفلسطينية على مغادرة لبنان في صيف العام ١٩٨٢، تَحوَّلَ جوزف ـ إلى جانب محسن إبراهيم والشهيد جورج حاوي وفوّاز طرابلسي وآخرين ـ إلى لسانٍ من ألسنة «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» (مثلما كان لساناً من ألسنة المقاومة الفلسطينية في لبنان: ١٩٦٩ ـ ١٩٨٢). وحين قامتِ «المقاومة الإسلامية» وتعاظمت ـ بعد

انفراط تجربة «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» في أعقاب تحرير صيدا من الاحتلال ـ كاد يكون الوحيد من مثقفي اليسار الذي بَلَعَ تحفظاته وخشْيَتَهُ من تطييف المقاومة، فأصَرَّ على النظر إليها في رحاب الوطن لا في حدود الطائفة، وظل قلماً من أقلامها قبل أن يبدأ غيرُهُ من بقايا اليسار في اكتشافها بعد صمودها في حرب «عناقيد الغضب» (١٩٩٦) ونجاحها في تحرير جنوب لبنان (٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٠).

وداهمتْهُ وجيلَهُ نكبةُ الثورة الفلسطينية في لبنان ـ بعد الاجتياح الإسرائيلي وحصار بيروت (١٩٨٢) ـ وخروج مقاتليها وقادتها ومؤسساتها وتوزّعهم في المنافي، والمتاهات السياسية التي ذهبت في أنفاقها وصولاً إلى «اتفاق أوسلو» المشؤوم. فلم يستسلم مثلما فَعَلَ آخرون. ظلَّ وفيّاً لفلسطين وشعبها فدافع عن المخيمات التي تعرَّضت للذبح في لبنان في الأعوام ١٩٨٢ و١٩٨٥ و١٩٨٦؛ ورأى في انتفاضة ١٩٨٧ في الأرض المحتلة مدخلاً نحو تجديد حركة التحرر الوطني الفلسطيني، ورفَضَ تسوية مدريد (١٩٩١) ومفاوضات واشنطن (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣). وفيما كان رفاقٌ قدامى له يهاجمون ياسر عرفات ويمدحون تسوية «أوسلو»، فَعَلَ عكس ما يفعلون: هاجم «أوسلو» وظل مدافعاً عن ياسر عرفات حتى استشهاده.

وداهمَتْهُ وجيلَهُ مأساةُ انفراط «المعسكر الاشتراكي» وانهيار الاتحاد السوفياتي. هلَّلَ غيرُه من بعض اليساريين القُدامى للحدث، فوضع عليه قسمٌ منهم حَجَرَ التوبةِ الأساس الذي سيُقيم عليه في ما بعد عمارةَ العودة السريعة إلى ضفاف الليبرالية قانعاً من «الثورة» بالإياب. أما جوزف، فَقَدَّ الصَّخْرَ بأنامله مستميتاً في الدفاع عن الاشتراكية كأفقٍ وحيدٍ مفتوح من أجل استئصال الاستغلال وبسط العدالة الاجتماعية في الأرض مشتدّاً في النكير على «الليبرالية» (الاسم الملطَّف للرأسمالية الوحشية) وعلى جرائمها في حقّ خبز الفقراء والكادحين وأمنهم وأمن أوطانهم. ولم يَنْسَ للسوفيات ـ على ما كان لديه باستمرار من ملاحظات نقدية على نظامهم السياسي وقمعهم للحريات ـ مناصرتَهم لشعوب العالم الثالث وتأييدهم لقضايانا وحقوقنا العربية، ولا تَجَاهَلَ ما دَفَعَتْهُ منطقتُنَا من أثمان فادحة لانهيار كيانهم وخروجه من المسرح الدولي.

ثم داهَمَتْهُ وجيلَهُ مأساةُ تدمير العراق في حرب العام ١٩٩١ وغزوه واحتلاله في حرب العام ٢٠٠٣. هلَّل بعضُ اليسار لِـ «سقوط القومية» ولِـ «سقوط الطاغية»، وأطلقوا ألسنتهم للتبشير بـ «النظام العالمي الجديد» وبـ «نشر الديمقراطية». أمّا هو، فرأى في «النازلةِ» نكبةً للأمَّة لا تعادل في الرّزء والفداحة إلا احتلال فلسطين واغتصابها في العام ١٩٤٨. كان يدرك أن سقوط العراق مَعْبَرٌ نحو صعودٍ متجدّد للمشروع الصهيوني في الوطن العربي، وأن إسقاط الدولة في العراق مدخل إلى الطائفية والفتنة والحرب الأهلية، وأن «الديمقراطية» المحمولة على دبابات الاحتلال هي الاسم المستعار للتفتيت الكولونيالي الجديد...، فما ادَّخَر وسْعاً أو وفَّرَ جَهْداً لفضح الاستراتيجية الأمريكية الجديدة ـ في عهد المحافظين الجُدد ـ تجاه العراق والمنطقة: التفكيك والتفتيت وإعادة التركيب على مقتضى هندسةٍ أنثروبو ـ سياسية تصنع الكيانات على مقاس العصبيّات!

غَيَّر غيرُهُ وبدَّل، أما هو، فَرَابَطَ عندَ ثغور الثوابت (الوطن، العروبة، فلسطين، الحرية، العدالة الاجتماعية، الأممية المناهضة للامبريالية والصهيونية والعنصرية، المُواطَنَة والنظام الديمقراطية المدني...) يَحْرُسُها من التزوير والعبث الايديولوجي المحمول على حواملَ بَرَّاقة خادعة أحياناً أو فاضحة مفضوحة في الأكثر من الأحيان. لم يكن دوغمائيّاً متَحجِّراً يأْبى المراجعة والنقد الذاتي. كان سيِّدَ من فتحوا الملفات والمواقف كافة أمام المراجعة والنقد والتصحيح والتصويب، ولكن من دون انجرارٍ إلى جَلْدِ الذات (المازوشية) كما فَعَلَ غيرُه، ومن دون إبداءِ نَدَامَةٍ على ماضٍ قوميٍّ أو يساريّ كما يفعلون. المراجعةُ عندهُ ليستْ تَحَلُّلاً من مبدأ، بل مزيدٌ من التزامِهِ بعد تطويرٍ وإغناءٍ في النظرة إليه. المراجعةُ أن تُجَدِّدَ الصحيح كي يُصْبح أصَحّ، أن تُحِيطَهُ بشبكةِ أمانٍ من الوضوح الفكري تَحْمِيه من غائلةِ القراصِنة والتائبين والمُحْبَطِين. المراجعةُ (عنده) أن لا تُرَتِّلَ المبادئ ترتيلاً وتُحَوِّلها إلى تَمِيمَةٍ ايديولوجية تتعوَّذ بها من شيطانِ المُتَغَيّر والمُتَحوِّلِ من الواقعات والمعطيات، وإنما أن تَزجَّ بالتفكير والنقد في الذي يتغيَّر ويتحَوَّل كي تُسَدِّدَ حركةَ الثابت (الثوابت المبدئية) وتُؤَقْلِمَهُ مع المتغيّر... حتى يستمرَّ مبدأً ثابتاً.

❊ ❊ ❊

هكذا كان جوزف سماحة: مدرسةً في الالتزام عزَّتْ لها الأشباهُ والنظائر. كان حزباً وحده، أكبرَ من حزبٍ وأبعد تأثيراً. كلّ حزبٍ يؤثّر في جمهوره الذي قد يضيق أو يتسع. أما جوزف، فأثَرُهُ في الأحزاب كافة، يخترقُها بخطابه من دون استئذان ويسرق انتباهها إلى شيءٍ لا تقولُه ولا تَقْوى على قوله: مبنى ومعنى. ووحدها لغةُ جوزف ومفرداتُه كانت تستطيع ـ بعد صوت فيروز ـ أن تخترق البيئات والمؤسسات والأحزاب والطوائف، فَتَجْمَع اللبنانيين على بعض المعنى المشترَك الضائعِ في انقسامهم. وحتى حين ينقسمون، ويتسع الخرقُ فيهم على رتْقٍ ذاتيٍّ أو خارجي، يلتجئون إلى نصوص جوزف كي يقرأوا طَالِعَهُمْ في فنجانها. المُعَارِضُ منهم تدفعه الرغبة في اكتساب رؤيةٍ أو تحصيل مزيدٍ من الوضوح السياسي أو اقتناص معادلةٍ من معادلات جوزف الشهيرة ليركّب عليها استراتيجيةَ عمل. والمُوَالي منهم يدفعه الحرص على قراءة مزاج المعارضة وفهم وجهة حساباتها السياسية من خلال نصوصِ أَفْضَل منظِّريها وأرفع أقلامها، بل وأحد صنّاع القرار ـ غير المُعْلَنين ـ فيها. وفقط بهذا المعنى، اجتمع اللبنانيون على نصوص جوزف دون أن يشاطِرَهُ الرأيَ نصفُهم ممَّن أخذَ في السياسة موقعه على ضفَّة أخرى. وما اجتمعوا عليها، على اختلافٍ بينهم، إلّا لأنها تَنْضَح بروح المسؤولية العلمية وبالموضوعية والنزاهة التي حرص عليها جوزف حتى وهو ينحاز إلى فريقٍ دون آخر.

وليس معنى ذلك أن جوزف التزم حَيْدةً باسم التحليل أو عفَّ عن مقارعةِ خصم وسِجَالِه. لا، بل هو نَاظَرَ وسَاجَلَ وأفْحم. وكان خصومُه أمامه بغير حَوْلٍ أو قوَّةٍ في مدافعةِ النفس. لكنه أبداً لم يهبط عن معدَّل الأخلاق الفكرية والسياسية ولا انحدر إلى نقارٍ ايديولوجيّ، ولا تَوَسَّل يوماً بمفرداتِ البَذَاءةِ والقذف والتشهير لدحضِ رأيٍ أو موقف. ذَلِقَ

اللسانِ وعفيفَهُ كان، فلا تقرأ له عبارات التجريح أو تسمع منه عباراتِ إساءة حتى في حقّ من أساؤوا إليه وتطاولوا عليه. نعم، كان نقدُهُ حادّاً لكل من رأى فيه داعيةً إلى الطائفية أو إلى السلام مع إسرائيل أو إلى التجاوب مع السياسة الأمريكية في لبنان والوطن العربي أو إلى إنكار العروبة أو تشييعها باللسان. غير أنه أتى نقداً حضاريّاً بلغة البيان والحجة وما زاغ يوماً عن هذه المَحَجَّة.

## ـ ٣ ـ

ما كان جوزف سماحة المثقف اللبناني الوحيد المعادي للطائفية، ولا كان وحدهُ اليساريَّ الوحيدَ المتمسكَ بالعروبة الديمقراطية المستنيرة، ولا انفرد بالجَمْع بين لينين وعبد الناصر وياسر عرفات وحسن نصر الله في وجدانه دون ارتكاب التناقض والتنافر، وقطعاً لم يكن وحده الذي كرَّس القلم لقضية فلسطين. فَعَلَ ذلك آخرون على قلّتهم. لكنه كان المثل الأعلى والمثال في ذلك كلِّه. كان المثلَ الأعلى في كثافة الإيمان بما آمن به: إيمان يوميّ لا ينقطع ولا يَقْطَعه سهْوٌ عارض. إيمان لا ينبعث فجأة حَيْثُمَا تنشأ له المناسبات، بل يتدفق في كل لحظة كتيار الشعور المتدفق على قول برغسون. وبسبب كثافة ذلك الإيمان واستقراره في العميق من النفس ـ من حيث هو أيضاً ثمرة إمعانه اليوميّ في التفكير في أمّهات المسائل والتَّمَاسِ المستمر معها ـ انفرد جوزف بالقدرة على البقاء مستنْفَرَ العقل أمام أية نازلةٍ سياسيةٍ مفاجئة قد تُدَاهِمُ الوعيَ أو تُذْهلُه. فكنتَ إذا سألتَه في أمرٍ طارئٍ طريّ، تكتشف على الفور جَهُوزِيَّتَهُ للخوض فيه واقتدارَهُ في وضْعه في سياقاتٍ قد يحتاج منك الربطُ بينها وبين الطارئِ زمناً من التفكير أطول (يختصره لك جوزف في دقائق).

وكان المثل الأعلى ـ ثانياً ـ في باب الاقتدار الذي لا يضاهَى أو يُضَارَع في التعبير الدقيق والبليغ عمَّا يفكِّر فيه. طوَّع لغة السياسة والصحافة لتصبح أهلاً للإفصاح عن مركَّبات لا تقوى عليها غير اللغة النظرية المفاهيمية. في جمله القصيرة المتلاحقة، يستعير تقنياتٍ مشهديَّةً مثيرة من لغة الصورة (سينما، تشكيل، مسرح راقص) ومن لغة الموسيقا التصويرية. لا تكرّر الجملةُ نفسها. تستقل السابقةُ عن اللاحقةِ بكيانها التعبيريّ الذاتيّ. تقرأ، تَخَالُهُ يصف، فتكتشف أن ما يبدو لك وصفاً ليس سوى عناصر خام تَعْجِنُهَا عمليةُ الاستنتاج والتركيب عنده فتخرج الصورة وقد زُفَّت في موكبٍ بَهيّ من المعطيات. هارموني الكتابةِ عنده يقوم على تَرْكِ النَّصِّ يولِّد جُمَلَه المستقلة عن بعضها لينشأ عن التوازي بينها بناءٌ تناغميّ عذب.

كَسَرَ جوزف رَتَابَةَ الكتابة، والنَّفَس الاستطراديَّ فيها، وإيقاعيَتَهَا التقليدية، فاختار أسلوب الاقتصاد اللغوي: القليل القليل من المفردات في الجملة، الكثير الكثير من الدلالات والمعطيات فيها. أستطيع أن أَزْعُمَ مطمئناً أنه اخترع لغة خاصة لا يُضَارِعُهُ أحدٌ فيها (ربما كان حازم صاغية أقرب من الجميع إلى لغة جوزف). تقرأها باستمتاع واستلذاذ، لكنك أبداً تعجز عن مضاهاتها إذْ عبثاً تحاول ذلك. ويرتفع معدَّل الإعجاز فيها حين تنتبه إلى أن هذا

الأدبَ السياسيَّ الرفيع الذي يَقْطر من عقل جوزف وأنامله كالعَسَل يأتي منه عفواً و«على السَّجيَّة» دونَ كبيرِ عناءٍ وسَهَر ليالي وتجريب صيغٍ وترْكها إلى غيرها. إن كل نصّ لديه ابن لحظتِهِ كتابةً وإن بَدَا لك في ميزان النقد الأدبي ثمرةَ أيّام وليال. تَنْقَادُ له المباني والمعاني طائعةً وفيما تمتد أوجاع الكتابة في أحشاء غيره طويلاً. كالمتنبي ـ هو ـ إذ ينام مِلْءَ جفونه عن شواردها ويَسْهر الخَلْقُ جرَّاها ويَقْتَسِمُ. لكن السرّ في هذه الكيمياء اللغوية السحرية لدى جوزف، في أناقة الكتابة وفي البَذْخ الجماليِّ في التعبير عنده، ومَلَكَتِهِ المذهلة التي تتجلى في البناء والتركيب على خاماتٍ ومعطيات متفرقة وأحيانا شديدة التباعد والتباين...، أن وراءَها ثراءً فكريّاً هائلاً وحساسيةً جمالية عالية و..احتراماً عميقاً للصِّحافة ولوظيفتها.

يُصِرُّ جوزف دائماً على تعريف نفسه بأنه صِحَفيٌّ. يُخَامِركَ الشعور بأنه يقول ذلك تواضعاً على عادته في التواضع التلقائي الصادق، وَقد يُخَيَّلُ إليكَ أنه يُخْطِئ تعريفَ نفسه تعريفاً دقيقاً مُطَابِقاً أو يُخْطِئُ قراءةَ صورته في مرآتِكَ أنتَ الذي تحسَبُه مفكراً من الصّفُ الأول. تكتشف مع الزمن والمُعاشرةِ أنه صادقٌ في إصراره على ذلك التعريف، وأنه (= التعريف) قرينةٌ على مفهومٍ لديه للصحافة ينطوي على قدرٍ هائلٍ من التقدير لها ممارسةً ومهنةً ووظيفةً ودوراً. تتعلم منه درساً: الصِّحافة أعلى مقاماً من أن تكون وسيلةَ إخبارٍ وتعليقٍ وتحليلٍ للمتدفِّقِ من المعلومات وللسائِلِ من الأحداث. إنها، فوق ذلك كلِّه، صناعة معرفيةٌ كاملة تتسع لتوظيف خبرات الفكر جميعاً ومناهج العلم جميعاً من أجل بناء الرأي وتنمية الوعي. تَعْرف أن ذلك ليس حال الصِّحافة في بلادنا العربية اليوم، لكنك تعرف أن جوزف يقدم مثالاً لمعنى الصحفيّ قد يصبح مألوفاً بعد جيلٍ أو جيلين.

**إن كل نص لدى جوزف سماحة ابن لحظته كتابةً وإن بدا في ميزان النقد الأدبي ثمرة أيام وليال.**

ولقد ارتفع نجم هذا الصحفيّ الراحل في العقود الثلاثة الأخيرة في حساب أيّ منبر صحفيّ عربيّ ناهيك بالقرّاء، فكنتَ ترى الطلبَ عليه شديداً من كبرى المنابر الصحفية. وخلال تجربة خمسة وثلاثين عاماً من العمل كصحفي أو كمدير تحرير أو كرئيس تحرير (في **الحرية** و**السفير** و**الوطن** و**اليوم السابع** و**الحياة** و**الأخبار**، دون أن ننسى **زوايا** و*Issues*)، ترك بصماته في أيّ منبرٍ حَلَّ به ورفَعَ من منسوب مصداقيته لدى الناس. وهل قليلٌ أن يدشّن الآلاف من اللبنانيين والعرب صباحاتهم وأن يفتتحوا طقوس يومهم السياسيّ أو الثقافيّ بقراءةِ زاوية جوزف، وأن تتحول افتتاحياتهُ إلى موضوعٍ خاضع للتشريح في سفارات الدول الكبرى في بيروت ولدى ملحقاتها الإعلامية والاستخبارية. هل قليلٌ أن تكون نصوصه الأكثر مقروئية في المجتمع ولدى الطبقة السياسية وأن تصبح مادةَ استشهادٍ واقتباس عند أهمّ وأكبر صحفيّي العالم في أوروبا وأمريكا.

تحوّلت زواياهُ وأعمدته في **السفير** و**اليوم السابع** و**الأخبار** إلى «توجيهٍ سياسيّ»

يوميٍّ أو أسبوعيّ قد يغطي استشرافُهُ فترة من الزمن قادمة. أصبحت منارةً يُهْتَدى بها، شيئاً أشبه ما يكون بوسط المدينة يزحف إليه الناس ويلتقون فيه. وحين يَفْرَنْقِعُون عن المكان ويتفرقون أفراداً وجماعات، يتحدثون عن المكان الذي زاروه (الأعمدة والافتتاحيات) ويسترسلون في أحاديث تأويها مقاه أو مكاتب أو مقارٌ حزبية أو جلساتُ سمرٍ في الليل.

هكذا ترك جوزف في الناس، وسيترك، أثراً لن يَمْحُوَهُ الزمن: صورة المثقف الموسوعيّ الملتزم، الحاضر أبداً في التفاصيل لا يستعلي عليها، الجاهزِ أبداً كي يقتحم القلاعَ المحروسةَ لغموض اللحظةِ والموقف ويفتحها أمام الناس لمعاينةِ ما تُخَبِّئه، مزوّداً إيَّاهم بالرؤية التي لا يضيع معها نظرٌ أو يَذْهَل. يفعل ذلك كواجب يوميّ من دون ادّعاء ومن دون أن يطلب لنفسه شيئا غير الشعورِ بأنه أدَّى واجبه الفكري والوطني بأمانة. وراء قامته الشامخة شخصٌ خجولٌ في غاية البساطة والتواضع. قلَّما تسمع منه حديثاً ـ ولو عابراً ـ يحمل ضمير المتكلم. ولستُ أذكرُ شخصيّاً، من عشرات اللقاءات بيني وبينه (ربما مئات اللقاءات)، أنني سمعتُه يتحدث عن نفسه: عمَّا كتب، عمَّا قرأ، عمَّا سيفعل، ما خلا إذا انتزعتَ منه بأسئلتك بعض جوابٍ مقتضب تُطِل منه الأنا في احتشام وتَحْتَجِبُ سريعاً وكأنها تكفِّر عن سفورها غير المألوف. وحتى حينما تكون الفرصة مناسبة للحديث عن النفس وعمّا يعتزم الإقدام عليه من مبادرة، وكان ذلك بمناسبة التحضير لتأسيس جريدة **الأخبار**، لم أسمع منه، خلال أحاديثنا الأولى في الموضوع في دبيّ وفي الدار البيضاء وفي لقاءاتٍ متكررة أطول في شهريْ حزيران/يونيو وتموز/يوليو ٢٠٠٦ في بيروت، ما يفيد بأنه ينفرد عن غيره من المؤسّسين بدورٍ ما في التأسيس. وقد استوقفني كثيراً استعمالُه ضَميرَ الجمع في كل ما قاله لي عن الجريدة: فكرةً وتمويلاً وطموحاً إعلاميّاً. هو هكذا دائماً: يُفْنِي ذاتَهُ كي تنشأ ذاتٌ جمْعية تحمل فكرةً وتمضي.

ـ ٤ ـ

ما كلُّ مجتمعٍ يُنْتج أضْرَابَ جوزف سماحة، وما كلُّ حقبةٍ من الزمن تُنْجِب أمثَالَه. يعلو على معدَّلِ المألوف من الناس في طيبوبة النَّفْس وفي الالتزام والمعرفةِ والكبرياء. تحاول عبثاً أن تتذكر مَن عساهُ يُشْبِهُه، فلا تكاد تعثر سوى على قليلين يتفوَّق عليهم جوزف بكثافة حضوره في يومياتنا، لأنه يكاد يكون الوحيد بين أَتْرابه الذي تزوَّج الهمومَ اليوميةَ الكبرى وأنْجَبَ منها وعياً يتردَّد كل يوم على الصفحة الأولى من الجريدة. فجوزف كائن سياسيّ (بالمعنى الفكري لا الحَرَكيّ)، بل هو الكائنُ السياسيُّ بامتياز: يتنفَّس السياسةَ والشأنَ العام وتتغذى بهما دورتُه الدموية. تُلَازِمُهُ وتحايثُه في الحَلِّ والترحال. هي على مائدة طعامِهِ الطَّبقُ الرئيسي، وفي قلمه المداد الذي لا يَنْضب. وهي في أحاديثه مع الأصدقاء قطعةَ سُكَّر القهوة التي يرتشف، وعلى مكتبه تملأ المكان فسيفساءَ من الصحف والمجلات والكتب والتقارير المحمولة إليه باللغات الثلاث التي يستعملها (العربية والإنكليزية والفرنسية).

لا أذكُر في عشرات اللقاءات بيننا ـ وأكثرها في بيروت في السنوات العشر الأخيرة ـ أنْ دار حديثُنا خارجَ السياسةِ والشأنِ العام إلّا في مرَّات خمس فقط: مرَّة في باريس قبل خمسة عشر عاماً أو أكثر، وتجاذبنا فيها حديثاً حول تيارات الفكر الفلسفي في فرنسا والتراجع الذي بدأت تشهده منذ الثمانينيات، وفيها أحسستُ بنشوته ونحن نستعيد أطروحات ألتوسير وپولانتزاس وحزنه على النهاية المأساوية للرجلين: جنوناً وانتحاراً. ومرتيْن في بيروت وأخرى (رابعة) في الشارقة والأخيرة (الخامسة) في الدار البيضاء (أيار/مايو ٢٠٠٦) في مقهى جَمعنَا: هو وفيصل جلّول وكمال الطويل وأنا، ودار حول سلاطين الغناء في الموشحات في بلاد الشام وحول أم كلثوم، واستكملناه ـ جوزف وعزمي بشارة وأنا ـ ليلاً في سيارتي ونحن نقطع الطريق من الدار البيضاء إلى بيت الصديق طالع السعود الأطلسي في سلا تلبيةً لدعوةِ عشاءٍ منه حَضَرهُ الأستاذان محمد اليازغي وإدريس لشكر.

في المرات الثلاث التي تحدثنا فيها ـ في بيروت والشارقة ـ خارج السياسة: في الفنّ والأدب، الموسيقا والشعر، اتفقنا واختلفنا. اتفقنا على أن محمود درويش الأعلى كعباً في الشعر العربي الحديث، وأن سيّد درويش سيِّدُ أهل الغناء والموسيقا في التاريخ العربي الحديث، وتبادلنا المديح في زياد الرحباني ومرسيل خليفة، والتساؤل عمَّا إذا كانت أعمال وليد غُلْمِيَّة («المتنبي»، «القادسية»، «المواكب»...) تنتمي إلى التأليف السيمفوني بالمعنى العلميّ الدقيق، ثم اختلفنا في أيِّ المرأتيْن الكبيرتيْن أعلى مقاماً في الغناء: أمّ كلثوم أمْ فيروز.

كنتَ كلثوميّاً عنيداً يا جوزف أكثر من أيّ كلثوميٍّ عرفتُه، ولم أكن أقلَّ عناداً منك في فيروزيَّتي. كان في وسعك، وأنت تستعيد أمهات أغانيها الكلاسيكية، أن تستثير حنيني إلى صوت أمّ كلثوم الذي حاولتُ أن أنساهُ ـ بصعوبة ـ منذ ثلاثين عاماً أو يزيد، وأن تُشْعِل رغبتي في إعادة سماع «رقّ الحبيب» التي حسبْتَها أجمل أغنيةٍ في تاريخ الغناء العربي. ولقد نجحتَ حين دفعْتَنِي ـ وأنا أزور دمشق بعد أيام من حديثنا ـ إلى أن أبحث عن نسخةٍ منها وأن أسمعها بعناية، وبعد عقود، وكأنني أكتشفها لأول مرة. لكنك ما استطعتَ ـ عذراً منك يا صديقي ـ أن تزحزحَني عن موقعي الفيروزي بغاراتك المتكررة على أغنية الريف والضيعة التي افترضتَ أن فيروز بقيتْ حبيسةَ أسوارها بسبب ولَع الرحبانيَّيْن (عاصي ومنصور) بمناخ القرية في مسرحياتهما الغنائية. فلقد كان موقعي الفيروزي ـ كموقعك الكلثومي ـ حصيناً وممتنعاً على الاختراق.

كان في وسعي ـ ونحن نتجاذب الأدلة ـ أن «أُغِيظَك» مرتيْن: مرة حين قلتُ لك إن أنْجَحَ من نَجَحَ في إيذاءِ ولَعِكَ اللامعقول بأم كلثوم هو صديقُ عمرك حازم صاغية في كتابه الذي كرَّسَه لنقد ظاهرة أمّ كلثوم (وقد يكون وضعهُ «نكايةً» بك، واللهُ أعلم). ومرةً ثانيةً حين سألتُك في ما إذا كان شغفُك بزياد الرحباني يحمل بعضاً من التكفير اللاشعوري عن «خطيئةِ» وضْع صوت أمِّه (= فيروز) في ميزان المقارنة مع أي صوتٍ آخر عظيم في العالم ولو كان صوت أم كلثوم. أعرف أن وَلَعَك بفنّ زياد لا ينتمي إلى أي تعويض سيكولوجيّ من هذا النوع، وأنه قائم على إيمان بعظمة ما يقدّمه هذا الفنان الكبير، لكنها «الإغاظَة» يا جوزف،

اقترفتُها من باب المزاح، أو ربّما للدفاع عن موقفي إزاء «مَحْدَلَةٍ» إيمانِك بقناعاتٍ فنية لا تقبل عندك مراجعة شأنها شأن ماركسيتك وناصريتك وانحيازك إلى المقاومة.

كنتُ أدركُ أن إغاظَتَكَ في متناول أيّ شخصٍ يعرف خريطة وجدانك وأوتاره. استطعتُ لحظةً أن «أُسَلِّفَك» الشعور بالرضا عن ذائقتي الموسيقية حين تحدثتُ بإعجاب عن الثورة التي أحدثها القَصَبْجيّ في مدرسة التلحين المصرية، وأنا أعرف ماذا يعنيه القَصَبْجِي بالنسبة إليك؛ لكنه كان عليَّ أن أستدرك، فأقطعَ عليك حَبْل الارتياح، بالقول إن ثورة الموسيقا حدثت في الخمسينيات في لبنان مع عاصي الرحباني وليس في مصر مع القَصَبْجي أو محمد عبد الوهاب أو رياض السنباطي تاركاً لك أن تعترض على «شروحي» للفارق بين التلحين وبين التأليف الموسيقي.

في السياسة عنيد، وفي الثقافة والفن عنيد، وكذلك أنتَ عنيدٌ في غيابك. أيُّ فَقْدٍ. أية خسارة هذه الخسارة. لا، هي أكثر. لا تُسْعِفُ اللغةُ بالمفردات المطابِقة لرحيلِك أيها الهرم الفكري والإنساني الذي رُزئنا فيه.

ـ ٥ ـ

جوزف، أيها الصديق الذي ألقى علينا نظرةَ الوداع من بعيدٍ ورحل. هل تعلم كم تركتَ خلفَك من اليتامى والفقراء وأنت تدير ظهرك؟ كنتَ تعرف ـ دون أن تصرّح ـ بأنهم كثيرون. لكنهم ـ وأنت تَرْحل ـ صاروا أكثر. كل الذين حَسِبُوك منهم خسروك وأشْعَرَهُم غيابُك باليُتْم، لهم أسماء مختلفة: المقاومة، الفلسطينيون، العراقيون، الماركسيون، القوميون، الديمقراطيون، المثقفون والصحفيون، نشطاء منظمات المجتمع المدني، المناهضون للعولمة، المقاومون للتطبيع مع الكيان الصهيوني، المعارضون للطائفية والنظام الطائفي، الباحثون عن غدٍ إنسانيّ أفضل لا قمع فيه ولا استغلال، الواجدون فيك مثالاً ومَثَلاً أعلى يقتدون به وهم في مُقْتَبِلِ مغامرة الحياة العامة من الجِيل الشبابيّ الحيّ. فكيف سيبدأ هؤلاء صباحاتهم وقد أقْفَلْتَ عليهم زاويتَك اليومية؟

سيفتقدونك جميعاً في هذه الظلمة الظلماء أيها البدر. وستفتقد اللغةُ العربية أحدَ أشجع فرسانها وأَمْهَرِ مروِّضيها. كنتَ تُتْقِن سَوْسَها وسياستَها بحنكةٍ وحنانٍ ومحبَّة فتنقاد لك وتُسْعِف لهفَك على إخراج أجملِ ما فيها وأَرْشَق. كنتَ تفعل ذلك مع قليلين لا يزيدون على عدد أصابع اليديْن لأنك تحترم هذه اللغة يا ابن هذه اللغة، يا حفيد الجاحظ والتوحيدي والمتنبي والشدياق والعلايلي، يا ابنَ سيسيليا التي زرعتْ في طفولتك الغَضَّة حبّ العروبة والوطن.

ستفتقدك الأمكنةُ التي أقمتَ فيها ما شاء لك الزمن أن تقيم: الخنشارة وبيروت وباريس ولندن؛ وستفتقدك أشياؤكَ العزيزة التي حرصتَ عليها حرصَكَ على كرامتك: مكتبتُك التي رحلتْ معك من مكانٍ إلى مكان، وصورةُ جمال عبد الناصر التي لا تفارق مكتبك، وعاداتُك الجميلة في الحياة وفي عشق الحياة.

وسأفتقدك كثيراً أنا الذي تعلَّمتُ منك الكثير، وسأظل عاتباً على طريقتك في الانسحاب من بيننا من دون استئذان، وعلى الموعد الذي ضربناه لنا ولم تلتزم به. هل تعلم ماذا فعلتَ بي ذلك اليوم الخامس والعشرين، يوم الأحد الماضي؟ وصلتُ ظهر ذلك اليوم إلى مطار بيروت قادماً من المغرب. فكرتُ أن آخذ قسطاً من النوم يريحُني من وعثاء السفر قبل أن أهاتفك لنحدِّد موعد اللقاء في «مبنى الكونكورد». هكذا اتفقنا يا جوزف في مكتبك في **الأخبار** قبل أسبوعيْن من اليوم، حيث كنتُ هنا في بيروت وأخبرتُك أنّي مسافرٌ إلى المغرب بعد غدٍ (١٤ شباط/فبراير) وعائد إلى لبنان في ٢٥ من الشهر نفسه. قلتَ لي إن اليوم مناسب ويَلْزَمُني فقط أن أكلّمك هاتفيّاً حال وصولي لنتفق على ساعة اللقاء. وصلتُ، أجَّلْتُ الاتصال قليلاً. قلتُ يَلِيقُ بي أن أرتاح قليلاً لأعوِّض عن ليلةِ أمس التي لم أَنَمْهَا، ولا بأس من الاتصال بعد ساعتين: في الخامسة والنصف أو السادسة. لم أرتَحْ ولم أَنَمْ، فقد نزل عليَّ الخبر نزول الصاعقة وأخْرسَ لساني وشَلَّ أطرافي، وأوقعني في حالٍ من الذهول لم أخرج منها حتى هذا اليوم الرابع على رحيلك.

سأفتقد دفء صَوتك الذي كان يمنحني القوة أثناء الحرب. كانت مكالمةٌ هاتفيةٌ منك، أو لقاءٌ سريعٌ على فنجان قهوة ونحن تحت أمطار القصف وجحيم القتل الاسرائيلي في الصيف الماضي، يكفيانِ كي يُشْعِلَا ملح الصمود في نفسي.المعارك محتدمة وبيروت تهتز بالقصف الجنوني وأنا أسألك: «كيف ترى الأمور يا جوزف»؟ «ستنتصر المقاومة» تجيب. صدقتك وصدقت نفسي وانتصرت. لكني لا أصدق كيف ترحل بهذه السرعة.

**ما كل مجتمع ينتج أضراب جوزف سماحة، وما كل حقبة من الزمن تنجب أمثاله.**

سأفتقدك أكثر كلما كنتُ في بيروت. أسأل نفسي: ما الذي ستعنيه لي بيروت بعد رحيلك؟ هل سأظل مدمناً على حبِّها مثلما كنتُ دائماً تاركاً لك ولصديقنا فوّاز طرابلسي أن تستغربا هذه العلاقة التي تشدُّني إلى هذه المدينة؟ أنا الآن أشعر فيها ـ ولأول مرَّة ـ بالغربة والوحدة. أنتَ هناك في عالم ما بعد المادة، وفوّاز يقيم بعيداً في قلب عالم المادة (أمريكا)، وأنا أجترُّ أحزاني وأفتح حنفيَّةَ عينيَّ لبكاءٍ حرٍّ طليق... بلا قيود.

جوزف، أَفْخَرُ مثل كل أصدقائك بكوني حظيتُ بصداقتك. لكنّ صداقَتَك يا صديقي عاليةُ الكُلْفَةِ عليَّ اليوم. تُكَلِّفُني مقاومةً خرافيةً لشعور الفقدان لا أملكها ولا أستطيعها. في هذه اللحظة ـ فقط ـ تمنَّيتُ لو أنني ما عرفْتُك أو كنتُ لك صديقاً؛ كنتُ حينَها وفَّرْتُ على النفس وطأة الشعور بالألم. ليتَك كنتَ مجرَّدَ اسم أقرأ له وأُعْجَبُ بما يَكْتُب، ثم أتأسَّف لرحيله إن رَحَل. لكن ما بيَ الآن أكثر من الأسى والحزن. شيءٌ أقرب إلى التفجُّع المُوجِعِ بيَ الآن. وها أنذا أرثيك وقد كنتُ أتمنى أن ترثيني. ما الذي يمكن أن يتمناه المرءُ لنفسِه بعد أن يفارق هذه الدنيا أفضل من أن يرثيَهُ جوزف سماحة؟ هنيئاً لك يا سمير قصير بمرثيته لك يوم رحيلك المُفْجِع.

جوزف، ما أقسى هذا الرحيلَ يا صديقي. لو تَعْلَمُ بما تركتَ من الفراغ في قلبيَ المُكْتَظِّ بالأصدقاء لغفَرْتَ لي دموعاً لم أذرفْها على عجَلٍ وأمضي كما قد تريد...

جوزف، أيها القابعُ في أعماقِ نفسي حتى آخرِ النَّفَسِ، إنْ أَنْسَاكَ يوماً أَنْسَى نَفْسِي □


## صدر حديثاً عن المنظمة العربية للترجمة

# البحثُ عن التاريخ والمعنى في الدين

**تأليف: ميرتشيا إلياده**

**ترجمة: د. سعود المولى**

تعود بدايات التاريخ المقارن للأديان إلى منتصف القرن التاسع عشر، أي إلى الفترة التي شهدت أوج الدعاية المادية والوضعية؛ فالوضعية المادية التي استند إليها أوغست كونت التقت مع النزعة التطورية التي ظهرت في نظريات تشارلز داروين حول أصل الأنواع، وأطروحات هربرت سبنسر حول الخط الأحادي للتطور والتقدم. ووفق هذه التيارات والنظريات لم تكن الظواهر الدينية سوى مخلفات ماض مظلم وبنية بدائية تقضي ضرورات التطور باضمحلالها التدريجي مع تقدم العلوم وشيوع الأنوار.

درس إلياده كل هذه المدارس والاتجاهات واستوعب تراث الوضعية، وكذلك الدراسات النقدية والتأويلية التي راجت في عصره، وخلص إلى استنتاج أن علماء القرن التاسع عشر سيطر عليهم هاجس البحث عن الأصول.

سبح إلياده عكس التيار السائد في زمانه، داعياً إلى «مذهب إنساني جديد»، وإلى «نهضة جديدة»، وإلى تاريخ للأديان يأخذ بالاعتبار ثقافة الإنسان الشاملة التي هي ثقافة الإنسان الكوني.

● **ميرتشيا إلياده (١٩٠٧ ـ ١٩٨٦)**: عالم أديان روماني عاش في أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية وأسهم في تطوّر علوم الأديان وتاريخها.

من مؤلفاته: *Aspects du Mythe*; *The Myth of the Eternal Return*; *The Sacred and the Profane*; *Histoire des croyances et des idées religieuses*.

● **سعود المولى**: أستاذ علم الاجتماع السياسي في معهد العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية. من مؤلفاته: **الحوار الإسلامي المسيحي، العدل في العيش المشترك، وخريف الأمم المتحدة**.

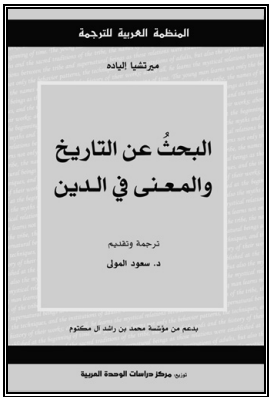


**٤١٠ صفحة**

**الثمن: ١٤ دولاراً**

**أو ما يعادلها**